هوامش

من أجل تسليط الضوء على تجربته الإبداعية المُلهمة، يفرد متحف فيتزوليليام، في جامعة كامبريدج البريطانية، معرضاً مُخصصاً لرسوم الشاعر الإنكليزي، تحت عنوان «عالم وليام بليك»

من أعمال بليك (Getty)

وليام بليك
الشياطين والملائكة في حفل راقص

ريم ياسر

يُعرف الشاعر الإنكليزي وليام بليك (1757 - 1827) بأنه واحد من أهم رواد المدرسة الرومانسية في الشعر. في الحقيقة، لم يكن بليك شاعراً فقط، بل كان رساماً أيضاً، وصاحب أسلوب فريد بين فناني عصره، غير أن سُمعته في الشعر طغت على سمعته بالفن. لا تختلف أجواء الرسومات التي تركها بليك عن شعره؛ إذ اتّسمت في الغالب بأجوائها الخيالية وكائناتها الأسطورية. في هذه الرسوم، تنقض التنانين على البشر، وتجتمع الشياطين والملائكة في حفل راقص، بينما تظهر بين الحين والآخر شخصيات بأحجام استثنائية، كي تنتصر للخير في مواجهة الشر. يرى بعضهم في هذه الشخصيات التي ابتكرها بليك مُقدمة مبكرة لشخصيات الأبطال الخارقين الذين ظهروا لاحقاً في فن القصص المصورة، ثم انتقلوا منه إلى السينما.

من أجل تسليط الضوء على هذه التجربة الإبداعية المُلهمة، يفرد متحف فيتزوليليام في جامعة كامبريدج البريطانية (Fitzwilliam) معرضاً مُخصصاً لرسوم الشاعر الإنكليزي، ذي الأصول الأيرلندية، تحت عنوان «عالم وليام بليك». تُلمّح الكلمة التقديمية للمعرض بالعدوان الإسرائيلي على قطاع غزة، ولكن من دون الإفصاح عنه صراحة، إذ تدعو الجمهور إلى الاستمتاع بالطبيعة الروحانية لأعمال بليك، باعتبارها «نوعاً من الاستجابة للفن في مُقابل دعوات الحرب والاضطرابات السياسية».

يضم المعرض الجديد تشكيلة متنوعة من أعمال الفنان الإنكليزي من مجموعة المتحف الخاصة، إلى جانب عدد من الأعمال الفنية لمعاصريه الأوروبيين، مثل الرسامين الرومانسيين الألمان؛ فيليب أوتو رونغي وكاسبار ديفيد فريدريش. يقول البيان المُصاحب للمعرض إنه على الرغم من أن هؤلاء الفنانين لم يلتقوا أو يتواصلوا أبداً في حياتهم، فإنهم تشاركوا في إحساسهم بالفردية والإيمان بقوة الفن في خلاص مجتمع يمر بأزمة.

في السيرة التي كتبها في منتصف القرن التاسع عشر، يذكر الكاتب البريطاني ألكساندر غيلكريست، أن بليك كان يعيش في عالم خيالي منذ صغره، حتى إن والديه قد أحجما عن إلحاقه بالمدارس النظامية. يروي كاتب السيرة أن بليك قد عاد يوماً إلى والديه وهو طفل صغير، وعليه علامات الفزع، ليخبرهم بأنه رأى في طريقه شجرة يجلس على أغصانها ملائكة صغار بأجنحة لامعة. ويقال أيضاً إن بليك قد تنبأ مرّة لمعلمه (ويليام ريلاند) بأنه سيموت شنقاً، وهو ما تحقق بالفعل بعدها ببضعة أعوام.

هي روايات قد تتسم بالمبالغة بالطبع، لكنها تشي بالطبيعة الغرائبية التي ميزت شخصية الشاعر والفنان. لم تلق إبداعات وليام بليك في عصره تقديراً، بل كان يُحذَّر من شعره ورسوماته بسبب آرائه الثورية التي وُصفت بالتطرف. اتُّهم بليك بالجنون والشطط في مواقفه، بسبب آرائه المتعاطفة مع الثورة الفرنسية ومطالب سكان أميركا بالاستقلال عن بريطانيا. إلا أن هذا الشاعر والفنان الذي اتسم بغرابة الأطوار، يُنظر إليه اليوم بصفته واحداً من أهم الشخصيات في تاريخ بريطانيا. وقد صنّفه استطلاع أجري في عام 2002 في الترتيب الـ38 بين أهم مائة شخصية بريطانية في التاريخ. بالمقابل، يلقى بليك، في عصرنا الحالي، تقديراً خاصاً في الوسط الفني، لما في تجربته من تشابه مع مفهومنا اليوم حول طبيعة الممارسة الفنية المُعاصرة، من حيث اعتمادها على وسائط عدة وأساليب مختلفة ومتداخلة في التعبير. أنتج بليك مئات الأعمال المتنوعة والغنية بالرموز خلال مسيرته الفنية، كما جمع بين الرسم والطباعة وكتابة الشعر، بل مزج بينهما في أحيان كثيرة في أعماله، ليشكل عالماً أسطورياً يتسم بالتعقيد والعمق، ويعبر في الوقت نفسه عن طبيعة عصره وثقافته.

يمكن القول إن وليام بليك كان تقدمياً ومتجاوزاً لعصره، فقد ظهر في وقت كان الخلط فيه بين الوسائط المختلفة يُعد ضرباً من الجنون. غير أن الفنان الإنكليزي لم يلتفت أبداً إلى هذه الأصوات الساخرة من فنه، بل واصل عمله في إصرار وتحدّ. كان فن بليك فريداً من نوعه بين فناني عصره، في دمجه للكتابة والرسم في عملية إبداعية واحدة، وفي استخدامه التقنيات الجديدة للجمع بين الصورة والنص. ومن خلال تقنية الطباعة المُضيئة التي ابتكرها، تمكّن من تكييف أدواته للتعبير عن رؤيته للعالم من حوله.

وخلافاً لمعاصريه أيضاً، كان بليك يشدد في كتاباته وفنه على أهمية الخيال الفردي والإلهام في العملية الإبداعية، رافضاً التركيز الكلاسيكي على الدقة الشكلية التي اتسم بها الرسم والشعر في القرن الثامن عشر. احتقر بليك ثقافة التنوير والتصنيع المعاصرة، التي تمثل الميكنة والاختزالية الفكرية في رأيه، وكان يرى أن الخيال هو الطريقة الوحيدة للتخلص من الحجاب الذي يلقيه الفكر العقلاني على الواقع.

باختصار

لا تختلف الرسومات التي تركها بليك عن شعره؛ إذ اتّسمت في الغالب بأجوائها الخيالية وكائناتها الأسطورية

■■■

لم تلق إبداعات وليام بليك في عصره تقديراً، بل كان يُحذَّر من شعره ورسوماته بسبب آرائه الثورية التي وُصفت بالتطرف

■■■

أنتج بليك مئات الأعمال المتنوعة والغنية بالرموز خلال مسيرته الفنية، كما جمع بين الرسم والطباعة وكتابة الشعر

وأخيراً

شيء عن روايات الناشئة

محمود الرحبي

كنّا، في سنوات الصبا، نهرب من كتب الواجب المدرسي إلى القراءات الحرّة في شتى المعارف، منها في المجلات الأسبوعية. وأخصّ هنا مجلة ماجد التي كانت تصدُر كل أربعاء، ولم تكن في مطرح (في عُمان)، حيث عشت طفولتي، إلا مكتبة واحدة، قرب مركز الشرطة. لاحقاً، يمكن إضافة روايات أجاثا كريستي، وما عرف بروايات عبير، لكنها لم تكن روايات ضحلة بقدر ما صمّمت لتناسب أعمارنا، نظراً إلى احتوائها على قصص ممتعة ذات طابع بوليسي أو عاطفي خفيف. سمعتُ مرّة من الشاعر الراحل سركون بولص في مسقط أنه كان يترجم بعضاً من روايات عبير إلى العربية من أجل أن يمشّي أموره المالية في بلدان الاغتراب.

تابعتُ، كغيري، ما حصل في معرض الكتاب في الرباط، حيث احتشد جمهور غفير من الفتية الذين حضروا إلى فعالية كاتب الناشئة السعودي أسامة المسلّم الذي لم أسمع عنه قبل هذه الضجّة، ربما مثل آلاف غيري، ولكن للصبية بين الأعمار 12-17 سنة رأي آخر. حين احتشدوا لأخذ توقيعه على كتب سبق أن اقتنوها له. وسيشكّل التوقيع هنا ذكرى ثمينة لهؤلاء. ربما المستغرب هنا أن الواقعة حدثت في المغرب، حيث اعتدنا على نتاج فكري متقدّم ودراسات أكاديمية رصينة في هذا البلد. ومثل هذه الزحمة يمكن أن تراها في معارض دول الخليج، ذات الطابع الاستهلاكي الصارخ. وأذكر مرّة أنني رأيت زحمة في معرض مسقط، وقيل إنها بسبب كاتب اسمه كويلي موجود في أحد الأروقة لتوقيع إصدارات له. سيذهب الظن الأولي إلى أن المقصود هو الكاتب البرازيلي باولو كويللو، صاحب رواية «الخيميائي» الذي تحظى أيضاً رواياته بإقبال من مختلف الأعمار. وأذكر مرّة في سوق مطرح في جلسة مع الناقد التونسي محمد لطفي اليوسفي وعائلته، حين ذكرت رواية «الخيميائي»، وكانت قد تُرجمت حديثاً، سمعت ابن اليوسفي وهو مراهق يشيد بها، وأنه قرأها ودعا والده إلى أن يقرأها كذلك. ولكن ما حدث أن كويلي هذا شاب كويتي يكتب روايات للناشئة، وهذه الزحمة من أجله، حتى إن إدارة المعرض والشرطة تدخلت لطرده لأنه لم ينسّق سابقاً مع إدارة المعرض، إنما بثّ دعوةً مفتوحة لمتابعيه من الفتية، الأمر الذي أحدث فوضى في الأروقة واكتظاظاً، ما اضطرّ أصحاب الشأن إلى طرده. كم نحن غائبون عن مزاج الناشئة في القراءة، وقد ظننّا طويلاً أن انشغالاتهم بالصورة تغلب على قراءاتهم الكتب، ولكن مثل هذه الحوادث المتعلقة بزحمة التواقيع للفتية تؤكّد أن الكتاب، في مستوياته الدنيا على الأقل، يشهد انتشاراً، إذا عرفنا أن كل كتاب لأمثال أسامة مسلّم والكويتي كويلي يطبع منه عشرات الطبعات المتوالية. ولكن الأمر قد يدعو إلى بصيصٍ من الغبطة في جانب منه، وهو أن الشباب يقرؤون، وإنْ لا يروقنا ما يقرؤونه، وهو مزيج من تجارب وتخيلات محبوكة تستند إلى التشويق (لا شيء غير التشويق). كذلك نستنتج أن الكتاب في هذا المستوى لم يعد فردياً، فلا بد أن هؤلاء الكتاب يستندون إلى وسائل ووسائط، وربما شركات، تشجّعهم وترعاهم، فأسامة مسلم دخل إلى معرض الرباط، كما سمعت، ومعه حارسان شخصيان.

> كم نحن غائبون عن مزاج الناشئة في القراءة، وقد ظننّا طويلاً أن انشغالاتهم بالصورة تغلب على قراءاتهم الكتب

يقال إن هذه الكتب، ولست ضدّها بالمطلق، لا تذهب في الزمن بعيداً، فالصبي ما إن يتجاوز عمراً معيناً يرتقي في تفكيره (أو هذا هو المفترض والمأمول)، ونتمنّى أن يفضي هذا الارتقاء به إلى قراءة كتب أكثر فائدة، حتى وإنْ كانت متوسّطة القيمة. تؤشّر كذلك هذه الحوادث إلى أن الكتاب، بمعناه الورقي البسيط، ما زال يقدّم مادة عضوية للروح، مثله مثل جميع الرغبات الضرورية. وقد قال بورخيس عن ضرورة الكتاب الروحية للإنسان: «الكتاب هو الأكثر دهشة بين كلّ الأدوات التي اخترعها الإنسان طوال تاريخه، إذ إنَّ بقية الأدوات امتداد للجسد، فالميكروسكوب والتلسكوب امتدادٌ لرؤية الإنسان، والهاتف امتدادٌ لسمعه، والمحراث والسيف امتدادٌ لذراعه، غير أنَّ الكتاب امتدادٌ لشيءٍ آخر، امتدادٌ للذاكرة والمخيِّلة».

سعر النسخة: مصر **جنيهان**، تونس **900 مليم**، لبنان **1000 ليرة**، قطر **3 ريالات**، السعودية **3 ريالات**، الكويت **200 فلس**، الإمارات **3 دراهم**، عمان **300 بيزة**، البحرين **300 فلس**، الأردن **400 فلس**، العراق **500 دينار**، المغرب **4 دراهم**، الجزائر **ديناران**، اليمن **50 ريالاً**، سورية **25 ليرة**، السودان **10 جنيهات**، ليبيا **200 درهم**، موريتانيا **35 أوقية** ◻ UK **£ 1,50**, Austria **€ 2,50**, Belgium **€ 2,50**, France **€ 2,50**, Germany **€ 2,50**, Holland **€ 2,50**, Italy **€ 2,50**, Spain **€ 2,50**, Switzerland **CHF 3,50**
Turkey **TL 10,00**, USA **$ 2,00**